

موروث في الأدب الفرنسي الحديث

تطور الحركة الأدبية

في فرنسا الحديثة

العلم في القصة - القصة التحليلية العلمية

بول بورجيه P. Bourget ١٨٥٢ - ١٩٣٥

التحليل العلمي عند بورجيه . التحليل الحى . المثالية
الرواية التقليدية أو آثار بورجيه الاخيرة

تختلف بيئات الأشخاص - عند بول بورجيه - عن
بيئات المدرسة الواقعية، فأرواح أشخاصه تكاد تحيا منعزلة
عن أجسادها، وهى ليست مختارة من الأشخاص المرضى أو
المنحطين. وبالأجمال لا يحيا أشخاصه فى بيئة تلك المدرسة .
وليس أشخاصه من سواد الناس ولا بموسرين ستموا الحياة،
وان منهم النساء الكيرات والماطلين، مفكرين أو فنانين . وقد
عد أرباب المدرسة الواقعية رواياته من نوع (السنوينيم) لأنها
فى أجزائها الأولى قد تجسدت من ذلك الايمان بالعلم الذى كان
مذهب زولا

وقد علم بورجيه أن أبرز صفة للشباب الحديث هى صفة
« القلق العلمى » . وهذا القلق هو الذى كان يهيم عليه يوم
كتب رواياته، وكان معلوه منهم « ستندال » الذى قرن فعل
الخيال إلى الدراسة النفسية، و « تين » الذى ابتكر علم النفس،
والذى بين أن فى النفوس بعض أسباب وعلل تجر بالضرورة
إلى بعض أفعال، وهذا علم النفس هو الذى وضع لرجال التشريح
النفسى مبادئ وقوانين خارقة، وهكذا لم تعد القصة وضعا
ولا تحليلا وانما أصبحت إيضاحاً

إن الدرس العلمى فى امكانه أن يولد تحليلا جذابا وجدلا عميقا
يجعل من صاحبنا مؤلف « تجارب نفسية حديثة » نقاداً واجتماعياً
أكثر مما يجعل منه قصصياً، لأن القصة ماهى إلا التعبير عن
الحياة، والحياة لا تكون حياة إلا اذا ظلت محافظة على ظواهرها

فى حريتها واختيارها، أما التحليل العلمى فقد لا يكون إلا ضرباً
من التشريح، وكما يعلم بورجيه « أن كل ما ينسرح هالك » على أن
من حسنات عبقرية أنه وجد فى « ستندال » وفى « تين » وفى
عبقرية الشخصية شيئاً لم يقف عند التنقيب عن الاسباب والاعمال
فانه تعلم - من وراء ذلك - حال تركيب العلل والاسباب،
وهو القائل « ان العقل المدرسى الذى يجدى فى المخاصمة الخطائية -
يجذب حين يريد أن يخضع لقوانين قوة الفؤ - المخنوقة والمتبدلة
فى الحياة، والدرس العلمى ينبغي له ألا يقنع بتوضيح هذه القوات
المشوشة، وإنما ينبغي له أن يعمل على اظهار التبدل فيها، والدوافع
والحياة، ومن هذه الناحية وحدها تصبح آثار بورجيه روايات
- لا مناقشات - كل شخص فيها عالم مستقل بذاته - عالم
لاقانون - هذه خلاصة قصته « قلب امرأة » - وهى خير
ما سطره يزاعه، لا تقف رواياته على التحليل المنطقى لحسب،
وانما هى توليد واحضار وبعث للنفوس .

أما المثالية Idéal العلمية عند بورجيه فقد اختلفت جد -
الاختلاف عن مثالية « تين » فهو لا يجحد المذاهب العلمية، حتى
اذا حاول أن يزود مثلاً عن مذاهب سياسية تراه يجرب أن
يجعلها قواعد تجريبية ترتكز على أعمال فى المجتمع وأعمال فى
التاريخ ولكنه - فى عالم الايمان - نراه أخذ يتحرى عن
شجرة غير شجرة العلم، وعنه يقول النقاد « جول ليمر » : ان
رجل اليوم هو عقلية مزيجة من العقل العلمى، والشعور الرقيق
الكثير، والقلق الخلقى، والركة والعطف، والتصوف . الروح
العلمية - عنده - لم تنجح إلى عمارة الدين والاخلاق، ولكنها
تركتها قليلاً قليلاً يعملان على فرض قواعد الحياة، وقبل أن
يفقد بورجيه رسول دين وسياسة تحول عن حلقة العلم الضيقة .
وهو القائل : إن انسان الرغبة والانانية، الذى لا يحيا إلا
ليحل نفسه، ولو كان من جرم ذلك تعاسة الآخرين، هذا
الانسان قد مات بنفسه، وهو القائل : « بألا حياة حقيقية إلا
فى مثل أعلى للاخلاص والزهد، مثل أعلى فى الدين، إذ لا يمكن
الحياة مطلقة تحت رحمة الأهواء وتقلبها المستمرة .

هنالك فئة من الأدباء حاربت أدب الديموقراطية والاشتراكية
حرباً عنيفة. ولقد عالج بورجيه فى روايته « التليد » المذهب

العلمية لا تأتينا واضحة إلا لأن مقاييسنا غير واضحة . ولا توضح الحوادث إلا بحدوث اصطلاحية قد لا تكون صميم الأشياء . ولكنها - صك تحكيم - بين العقل والأشياء ، على أن هنالك عدداً من الفلاسفة الذين درسوا العلم وقالوا بأنه لا يعطى الحقيقة المطلقة . وهذا هاملان ، دون أن يحدد تأثير العقل قال : بأنه لا يستطيع أن يفهم الحقيقة العميقة إلا إذا أولها وفسرها . وأخيراً جاءت فلسفة هنرى برجسون جاحدة بالفلاسفة والعلم الذى آمن به . تين وبرتلو ، من قبل

هنرى برجسون

نقد العقل Henri Bergson

ولد سنة ١٨٥٩ وأشهر تصانيفه « معلومات الشعور المباشرة ، مادة وذاكرة ، والقوة المبدعة » ، ويذهب برجسون فى « كتابه الأول إلى القول بأن الشعور المنطلق عن العقل . الشعور الفطرى فيه لا يتلام أبداً مع ما استخرجه العلماء من العقل المتحول المتبدل - كما أرادوه وسهلوه - . فالعلماء هم فى حاجة إلى قياس الفضاء وهو سهل عندهم ، وإلى قياس الزمان وهذا أقل سهولة . لأن قياس الزمان معناه الافتراض بأن الزمان تتألف أجزاءه من طبيعة واحدة Homagène وأن اللحظات المتتالية على حادث قد تكون من بعض وجوه متشابهة متطابقة ، تطابق طول متر مع طول متر آخر . ولكن هذا ما هو الافتراض ، إذ حين تتأمل نرى أن زمان هؤلاء العلماء هو زمان مجرد أو هو التجريد . أما الذى يوجد فهو الدوام ، والشيء الذى يدوم يختلف - فى لحظة ملحوظة - عما كان عليه قبل اللحظة السابقة ، ولهذا ينطوى هذا الشيء على شيء هو « دوامه » . فالدوام هو متألف من أجزاء مختلفة طبيعتها . تختلف عن ذاتها بدون نهاية ولكى تشكر صفة « الدوام » ، التى قال بها « زينون » ، ولم ينكرها عليه أحد ، نرى أن الشيء يمكن أن يكون ساكناً ومتحركاً فى وقت واحد ، وأن « أشيل » العادى وراء سلحفاة لا يستطيع - عقلياً - إدراكها . وهكذا نرى العلم المبني على الاصطلاح لا يمكن أن يكون إلا اصطلاحياً

وقد أتم برجسون فى كتابه « مادة وذاكرة » ، برهانه هذا ، فالإنسان - بوه عميق الجذور فيه - آمن بأن عقله يبسط له

المادى ، وتطرق إلى قواعد تين وبرتلور ريبو . والقصة ترى أن المذهب المادى خطأ . ولا يمكن فى كل الأطوار البرهنة على أنه مذهب حق . على أنه إذا كان حقاً فلا يمكن نشر ذلك والجهر به ، إذ أن هذا التعليم يمكن أن يخلق تلاميذ كهذا « التليذ » يرتكب جرائم خلقية ثابتة ، يكون المعلم فيها هو الضامن الكفيل . فرجل الآداب والمفكر لا يحق لها أن يكتب كل شيء ، ولكن واجبهما أن يكونا نافعين . وهكذا تعلم قصص بورجيه أن الفرد ورضا الفرد وإرجاع العدل إلى الفرد كلمات فارغة . إذ يرى أن المجتمعات هى أعضاء منظمة مرتبة ، ملاجئ الحياة هى الأسرة ، فكل ما يضر ببقاء الأسرة وخصبها وتنظيمها يفنيها كما هو الحال فى الجرائم التى تودى بالكائن الحي . ومنها الطلاق والاهمال فى الفسق والزنا ، وهجر الأولاد قبل البلوغ . والمجتمعات حالها كحال الأعضاء ، فى استطاعتها أن تتحرك ولكنها لا تستطيع ذلك إلا ببطء ، وكل تبدل فجائى يجر معه المرض والموت . وهذه الأخيلة الباطلة التى تبشرها المساواة والديموقراطية تؤول إلى هذه التغيرات والفساد ، فإن الطبقات الاجتماعية لا تجوز ، مرحلتها ، إلا على مهل ، بخارجة من الحياة العاملة إلى اكتساب الثقافة العقلية ، وحسن استعمال الثروة ومعنى السلطة . ومن أجل هذا ينبغي إجلال سياسة محافظة أرسقراطية ، وديانة توحى إلى الإنسان احترام الأسرة واحترام نظامها . وهكذا تبدل بورجيه فى نهاية أيامه ، وأصبح رجل وعظ فى السياسة والدين .

فشل العلم

نقد الفلاسفة

كان لبورجيه كما كان لبرتلو وتين وغيرهما ، إيمان لا يزعزع بالعلم .. والعلم وحده لا يكذب أصحابه ، وهو ينطوى على أسى الآمال ، ولكن بورجيه لم يكن وحده حين هجر نبوءته ، وهجر الآمال الخادعة التى يذيعها فإن الفلاسفة قبله قالوا : ليس للعلم مستقبل فيما وراء الطبيعة ، إذ أنه لا يقدر أن يعطى إلا يقيناً علمياً عملياً اصطلاحياً ، ولا يقدر أن يعطى اليقين ذاته . وقد قال « أميل بوتروس » فى إحدى مقالاته المنطقية : « إن المذاهب

الفلسفة الشاكة والنقد الشاك !

رينان في عهده الأخير

جمع رينان عام ١٨٩٠ كتابه « مستقبل العلم ، وأنجز تاريخه في أصل المسيحية . وقد كان ذلك المعلم الذي يعلم ، بالأناقة الحقيقية في التاريخ الانساني والعلوم أيضا إلا ما شهد العقل عليه مرفوقا بالأعمال على أنه حقيقة ، أما آثاره الأخيرة فقد جاءت - تعلمه بأن ليس في القدرة التثبت من أية حقيقة . وأن هذا العجز قد يكون ضروريا في بعض الأحيان . إن محاوراته الفلسفية تعلمنا أن الحقائق المطلقة ، الحقائق الفلسفية ، لا يمكنها أن تكون هدف البراهين ! وقد يكون هذا خيرا ، إذ من يعلم أن الحقيقة ليست بدافعة إلى الحزن ؟ من يعلم أن الأخطاء والأوهام ليست بنافعة أو ضرورية ؟ لقد كان الشعب حيوانا ضاريا مولعا بالاعتقادات الباطلة ، فذلك صرامته ومشادته باعتقادات باطلة مثلها . ما عسى يغدو الانسان إذا أصبح واقعا ؟ إنه يصبح سيدا صارما احق ! من يعلم بأن حكمة سليمان لم تكن - على حق ، تلك الحكمة القائلة : « كل شيء باطل ، باطل الأباطيل ، وكل شيء باطل تحت الشمس » . وإذا لم يكن كل شيء باطلا فان الفلسفة الحقيقية قد تكون فلسفة الصراير والقبريات التي لم تشك أبدا في أن نور الشمس ليس جميلا ، وأن الحياة ليست هبة سنية ، والأرض ليست معقلا حسنا للأحياء . إن خير ما نصنعه على هذه الأرض هو ألا نستغرق في تعليل الأشياء والتحقيق فيها ، وإنما نعمل على محبتها . فان سر الحياة لا يقف على العلم ولكن على الحب . وهذا عمل رينان على تهذيب شكه وتشذيبه ، وشهد على أن أكثر الأشياء ضامنا وجدا ، مهما ذهب الظن ، هو العلم . وهناك فئة كبيرة ذهلت من شك رينان الذي غمرها ، وكان ذلك - لعمر قصير ، ولحسن عادت هذه الفئة إلى التأثر بمؤثرات جديدة أخرى

النقد المنفعل Impressionisme

« جول ليمتر ، J. Lemaitre ١٨٥٣ - ١٩١٤ »

إن رينان قد أكمل دورة العلم قبل أن يناقشه ويحاكمه . وجول ليمتر لم يذهب إلى أبعد من ذلك . إنه أكمل دورة النقد

الحقيقة ، إن عين الحيوانات ليست موضوعا لتعرف أصحابها بحقائق الأشياء ، وإنما وظيفتها وظيفة عملية تهدي أصحابها إلى الانتظام بين الأشياء . فلو عاشت هذه الحيوانات على غير الأرض لاختفت لأنها تصبح عديمة النفع . وكذلك لكي نستطيع أن نحيا بين الحوادث ، قادرين على استخدامها على وجهها الأحسن المستطاع ، نجد هذا لا يطلب إلينا أن نعرفها بحقيقتها كما هي . وإنما يطلب إلينا أن نختار - بصورة عملية - الوجه الأحسن استعمالا وفائدة لنا ، لأن عقلنا لا يلمح إلا هذه الناحية العملية . إذ ليس هنالك عقل أو عقل شاعر إلا حيث يمكننا أن نتمسك جزءا من الشيء الذي نفكر فيه . والعقل والفكر الشاعر ليسا بوسيلتين للمعرفة وإنما هما وسيلتان للعمل . والعلم الذي أوجدها وشيدا أركانها ماهو إلا نظام جديد لوسائل العمل . وفن مستقيم لاستخدام الحقيقة في سبيل حاجتنا . فهو لا يعلمنا الحقيقة ولا يكشف لنا أسرار الوجود كما هو الحال في أن الأرب لا يكشف لنا طبيعة السرعة والخفة .

نقد العلماء

وأما العلماء أنفسهم فقد قلبوا وجوه العلم ودققوا مسائله . فاتهموا إلى القول بأن العلم إنما هو مذهب ووسيلة إلى استخدام الأشياء ، والعلم لن يصل أبدا إلى المطلق ، وقد عملت بعض مدارس الطبيعيين على رد علوم الطبيعة إلى مذهب رياضي صرف غاية الأرقام التي تأتي نتائجها صحيحة ، وخلاصة هذا النقد توجز في أبحاث الرياضي الكبير « هنري بوانكاريه » ، فهو في كل ما كتبه أعطى الأدلة القاطعة على بيان فضل العلم ، ودافع عن نفسه بأنه رجل شك . وهو يرى أن التحصيل العلي ليس عملا عبثا . بل إنه عمل أقل عبثا من غيره من أعمال الانسان . وهو في الغالب يكون مذهبا مطلقا . وكل العلوم - مثلا - هي علوم الحركة ، على أن من المحال أن تثبت حركة مطلقة ، وأن نبرهن - بقياس منطقي - على حركة الأرض

وهكذا نجد الفلاسفة والعلماء ينضم بعضهم إلى بعض للاتفاق على هذه الخلاصة ، وهي أن هنالك حقيقة مركبة متحركة بدون انتهاء ، وعقلا عمل - من أجل ادراكها واستخدامها - على فرض بساطتها واتحاد فكرتها وقوانينها ولكنه بعمله هذا غير الثوب وأفسد الحقيقة .

وحده . وقد لقي في المنابر والنوادي والصحف الكبيرة نقداً له فذهب من مزاعمه أنه يهذب الرأي باسم الذوق السليم والعقل . فسانت بوف - برغم عبقريته - لم يترك في النقد مدرسته ، وتين لم يأخذ عنه النقد إلا دساتيره ، وقد ألنى جول ليمتر أن هذا النقد عمله أن يحكم على بودلير وفلوير وفرلين وهنرى بيك وسواهم . ووجد فيه ما يبعث على السأم فشهد على أنه نقد فيه غش ومداهنة لأنه مبنى على أصول ومذاهب . ولكي يتم اليقين بهذه المذاهب ينبغي أن تبدل بمذاهب غيرها . وغيرها أيضاً إلى ما لا انتهاء . لأن هذه المذاهب ما بين جيل وجيل إما أن ينقض بعضها بعضاً ، وإما أن تتلاشى . إذ ليس هنالك في الحقيقة إلا ارتياح أو ضجر ، إلا انفعالات وتأثير . وقال أنا طول فرانس في كتابه : الحياة الأدبية : الحقيقة هي ما لا تخرج عن نفسها أبداً وفي هذا أكبر بلائنا . فلتحمل إذن بخلوص نية هذا البلاء ، ولا تصدر أحكامنا على الآثار ، ولنصدر انفعالاتنا !

لقد كان جول ليمتر صادقاً ولكنه كان أقل اهتماماً بما راح يزعم ، فلقد اتنى في أواخر أيامه إلى مذاهب سياسية ، وكان زعيم الحزب الوطني ، وهو - في فترات راحته - لا تشعر منه بذلك الرجل الذي يتحدث للتحدث وحده ، ولكن تحس ذلك القاضي الذي يحكم ويدين . على أنه يبقى رجلاً عالمياً ببعض آثاره العالية ، ومذهبه الانفعالي قد ترك له مجال الخوض واسعاً . فهو يستطيع أن يخوض حقولاً مختلفة في الأدب والفن لا يصرفه عن ذلك شيء ، وقد عمل على تجديد الأدب القديم وكانت له فيه محاولات لاستنقاذه من قيود الفصاحة التقليدية المدرسية لكي يتدمج مع الحياة الراهنة . وإذا كان النقد الانفعالي لم يجعل همه التحقيق والأقناع فهمه إذن أن يسر ، وهكذا أراد جول ليمتر أن يسر ! ولقد كان هذا الناقد من أوتي روحاً وخفة وفناً متزناً مستقبلاً ، فكان تأثيره عظيماً وأعظم آثاره المعاصرون .

٥٥٥

ريمى دى كورمون Remy de Gourmont ١٨٥٨ - ١٩١٥

لا يمكن الخوض كثيراً في الحديث عن ريمى دى كورمون ، فلقد كان له قراء أملاء ، لكن عددهم قليل . إذ كان يمتق الفوز والجماعات والمجد المدرسى ، على أنه كان معلماً ، معلم صفوة مختارة من القراء ، اتبعت تعاليمه ومذاهبه . وكانت تجد فيها فكرة رائعة متروعة ، لا تقف على الأدب وحده ، لقد كان يفتش في الآداب

وقد وضع في حياته الأدبية سلسلة أفكار قيمة ، وقد ظل يؤمن بأن هنالك كتاباً صغاليك وهم من يدعون « بالمدرسين » ، وكتاباً لبقين دأبهم أن يتحروا عن الأساليب الجديدة والتعابير الحية في الفن ، وقد حارب بشدة في سبيل المدرسة الرمزية وناوياً خصوصاً أشد مناوأة ؟

هليل هنراوى

رحلة

في بلاد العريسة السعيدة

تأليف : نزيه مؤيد العظم بك

وصف مسهب لبلاد اليمن وسبأ ومأرب ونصوص المعاهدات التي عقدتها الدول مع اليمن يقع في ٤٠٤ صفحة من القطع الكبير مزدان بالصور وهو الكتاب العربي الوحيد في بابه ويطلب من : -

مكتبة عيسى الباني الحلبي وشركاه

بجوار سيدنا الحسين بمصر

ثمان النسخة ٣٠ قرشاً عدا أجرة البريد